الدين والدولة فى الإسلام .. هل هما عدوان نقيضان أم ضرورتان ملازمتان

محمد سعد زغلول سالم

الأحد ٢ يوليو ٢٠٢٣

لا يستطيع أىُّ مراقب محايد لحال الإسلام فى مصر وفى عديد من الدول الإسلامية العربية الأخرى ومشاهدة ما يتعرض له فيها من هجوم مُخطط ومُنظم ومُستمر دون هوادة على ثوابت عقائده وتسْفيه لشعائر عباداته ونقضٍ لركائز معاملاته والسماح لكل من يمتلك لساناً وإن كانَ مِن البهائم التى لا عقلَ لها بالإجتراء عليه غير الشعور بالإستغراب لهذه الظاهرة التى فاقت فى غرابتها وشذوذها كُلَّ ما هو مُحْتَمَل فى سياق المنطق الصحيح .. وإلا أن يحاولَ فهمَ أسبابَ هذه الظاهرة التى تنذر بخطرْ داهِم على وجود هذه الدول إنْ لم يكُن فى المستقبل القريب ففى المستقبل البعيد إنْ كانَ لها مستقبل أو وجود حيث يُمثل الإسلام طوقَ النجاة الوحيد الباقى لها من الإنقراض الحضارى بعدما تم تجريدُها من أسباب القوة العلمية والقوة العسكرية وهما عماد وجود وإستمرار الدول فى عالمنا المعاصر الذى لا يعترف بغير قوانين الغابة فى التعامل فى ما بينها ولا يسمح للدول أو لأشباه الدول بالخروج من سياق الضعف والتخلف والإنحطاط المحصورة بداخله حتى يأتى دورُها فى التحلُّل والتفكُّك والإنهيار والغياب عن واقع الحياة إكتفاءاً بما سَيُسْطَر عنها فى صفحات التاريخ التى تشهَد وتُوثق كما شهدَت ووثقت هذا المصير لعشراتٍ ومئاتٍ من الدول الغابرة على مر العصور والتى ماعاد لها ذكرُ سوى ما جاء فى صفحات التاريخ عن نشوئها وإزدهارها ثم إنهيارها وإختفائها بغير عودةٍ إلى مسار الحياة أو الوجود.

وتثيرُ ظاهرة الإجتراء على كُلِّ ما يتعلق بالإسلام كثيراً من التساؤلات عن أسبابها ودوافعها وحقيقة أهدافها المحددة لها. فمَنْ يهاجم الإسلام ويجترىء عليه بغير علمٍ أو دراسةٍ مُسْبَقَة لعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث الصحيح وعلوم الفقه الإسلامى وهى لوازم الحد الأدنى من العلوم الضرورية التى يجب أن يعرفها من يريد نقدَ الإسلام ــ فضلاً عن معرفته المُتقنة لعلوم اللغة العربية ــ يستطيع أن يقولَ كُلَّ ما يَعِّنُّ له ويطرأ على خاطره من آراءٍ بغير دراسةٍ أو علمٍ مُسْبَق مُتحججاً بأنه لا يوجد فى الإسلام كهنوت يحتكر تفسير النص الدينى ويُحرمه على عامة المؤمنين وبأنه يمارس حقوقه فى التدبُّر وإعمال العقل التى منحها الله لعباده وعبيده على حدٍ سواء وأنه يجتهد لأن الإجتهاد فريضة قرآنية يُثابُ من يقوم بها حتى وإن أخطأ فى إجتهاده وبأنه فى نهاية الأمر يمارس حقوقه فى التفكير والتعبير وهى الحقوق التى منحَها الله لعباده وعبيده قبل أن تمنحها لهم القوانين البشرية الوضعية الحديثة. ورغم المَسْحَة المنطقية الظاهرة فى هذه الحجج التى يتخذها المنافقون والمُلحدون مُبرراتٍ لهم للهجوم على الإسلام ويتخفون وراءها بغير خوفٍ من مساءلة أو عقاب بحجة حرية التفكير والتعبير اللتيْن يحميهُما القانون فإنها مردود عليها بكشف حقيقة أنها كلها دونما إستثناء أقوالُ حقٍ يُرادُ بها باطل يكفى لدَحْضِها سؤال أصحابها عَمَّا إذا كانوا يستطيعون أو يجرؤون على التصدى لإبداء آرائهم أو تفسيراتهم لأى أمرٍ من أمور العلوم الطبيعية بدون دراسة وتخصص مُسبَق فيها أو حتى لأى أمرٍ من أمور المعارف العامة كالقانون أو الإقتصاد أو حتى الآثار بدون دراسة وتخصص مُسبَق فيها حيث يمكن أن يتعرضوا للعقاب حال الإفتاء فى أمور الطب مثلاً لغير الأطباء أو يتعرضوا للنعْت بالجهل وللإستهزاء والسخرية حالَ إبداء آرائهم حتى فى مجالات المعارف العامة.

ورغم خطورة هذه الظاهرة المُسْتهْجَنَة المتمثلة فى الهجوم المتكرر على الإسلام من قِبَلْ أفرادٍ مُسلمين لأسبابٍ ودوافع مختلفة صارت معروفة للجميع إلا أنَّ الخطورة الحقيقية تتمثل فى سماح الدولة وتسامُحِها مع هذه الظاهرة رغم ما تنذر به من خطورةٍ داهِمَة على وجود وإستقرار ومستقبل الدولة ذاتِها. فحتى مع تجاهُل مضمون الحكمة القائلة (إنما الأممُ الأخلاق ما بقيَت ... فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا) لا ولن يستقيمَ الأمرُ مع تجاهُل حقيقة أن العلم والقوة العسكرية هما الضمانة الوحيدة لنهضة وإزدهار وإستمرار وبقاء أى دولة فى عالمنا المعاصِر. وإذا كان واقع الحال هو ما نراه الآن من الإعتماد شبه الكامل لمعظم الدول الإسلامية والعربية على النتاج العلمى لدول العالم المتقدم وعلى منتجات القوة العسكرية لهذه الدول وهو ما يستنزف جزءاً مهولاً من ثرواتِها ومقدراتِها كان مفروضاً أن يُوجه لبناء القوة العلمية والقوة العسكرية لها كى تلحق بركْب الدول القادرة على حماية وجودها ذاتياً .. فعلى ماذا تراهِن هذه الدول الإسلامية والعربية فى ما تخطط له من بقاء أو إستمرار ناهيكَ عن أوهامِها فى النهضة والتقدم والإزدهار فى عالمٍ لا يُفْسِحْ مكاناً لغير الاقوياء القادرين على فرض وجودهم وإراداتهم على غيرهم من الضعفاء والمتخاذلين والقادرين على الإستئثار بكل ما يمكنهم الحصول عليه من ثرواتٍ ومقدراتٍ لاتزال بحوذة الضعفاء والمتخاذلين وهو حالٌ ونظام يحكُم علاقات الأفراد وعلاقات الدول سواءاً بسواء.

وربما يكون أشد ما يُثير الحنقَ والغضب بسبب حال الذُّل والضعف والهوان والخنوع الذى تحيا فيه وترضى به معظم الدول الإسلامية والعربية منذ قرون هو إمتلاكها لكل مقومات النهضة التى تستطيع أن تحقق وتفرض بها وجودَها فى عالم اليوم ولكنها لا ترضى بغير هذا الحال من الذُّل والضعف والهوان والخنوع الذى تحيا فيه وترضى به. فالعلم والعمل والقوة وهى ركائز النهضة التى تسيطر بها دول العالم المتقدم على بقية دول العالم أوامر دينية مأمورٌ بها المسلمون بل وهى أيضاً بمثابة عبادات دينية يُثاب على الأخْذ بها ويُعاقَبْ على تركِها وليست مجرد بديهيات منطقية أخذت بها الدول غير الإسلامية وإحتلت بها مكانة السيطرة والهيمنة التى تتمتع بها فى عالمِنا الآن .. والثروات الطبيعية التى توجد فى معظم الدول الإسلامية والعربية هى بدَوْرِها ركيزة من ركائز القوة والنهضة والتقدم وهى نعمة أنعمها الله بها على هذه الدول .. ورغم توافر كُلِّ هذه المقومات التى تقوم عليها نهضة الدول القوية المتقدمة التى تفرض إراداتها على ماعداها من دول لدى معظم الدول الإسلامية والعربية .. ورغم أنَّ الإسلام بما يفْرضه من ضرورة الأخْذ والعمل بهذه المقومات هو طوق النجاة الوحيد أمام هذه الدول للحاق بركب دول العالم المتقدم قبل أن تبدأ فى التحلُّل والتفكُّك والإنهيار والإنقراض الحضارى إلا أنه لا يلقى فى مواطِنِه غير الهجوم والإجتراء ومحاولات لا تتوقف ولا تنتهى لتغييبه عن كل مجالات الحياة فيها .. ولذا يظل السؤال قائما بغير إجابة : هل تحافظ الدولة بمحاربة الإسلام على وجودِها .. أم أنَّ محاربة الدولة للإسلام يُجردها من مصادر قوتها الحقيقية ويهْدم أمنها القومى ووجودها ولو بعد حين ؟!.